مَعَاني الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ في القُرآنِ الكَرِيم

بَحْثٌ فَلْسَفِيٌّ استِدْلالِيٌّ

محسن وهيِّب عبد

كربلاء المقدسة – العراق

فحوى البحث

بحث فلسفي استدلالي معمق يدور حول مسألة (الحُسْن و الاحسان والسوء والقبح) التي اوسعتها الفلسفات القديمة و الاسلامية والحديثة بحثاً. وقد تدرج السيد الباحث في تغطية معانيها على وفق تلك النظريات الفلسفية ليصل بعدها الى الوقوف على معانيها في القرآن الكريم. وقد ناقش الباحث آراء المفسر العلامة محمد حسين الطباطبائي في ذلك مناقشة ترقى الى اهمية الموضوع، وخلص الى تحديد ركائز الإحسان ولمن تعطى صفة (المحسن) او (المسيء).

● جاء في القرآن الكريم ما يؤكد معنى ثابتاً للحُسْن، كونه جوهر الوجود وروحه، فهو ذاتي طبعي، لأنه يكمن في الحركة الصاعدة للكمال، حيث هو معنى الانتقال من القوة إلى الفعل في الأنماط الستة للخلق.

وهو معنى نفاذية وحكم البديهيات الكونية في الموجودات، والعكس صحيح في معنى ثابت للسوء، حيث يتحقق في الفعل المعاكس لمعنى الحسن الجوهري، ونستطيع أن نستشرف مضمونه من أقواله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[سورة هود: ٧].

ومن قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سورة الملك: ٢].

نجد انه توكيد لكون الفعل الحسن ثابت وبديهي، فهو معيار في خلق الموت وخلق الحياة، وهذا ما يلزمه الذاتية، ثم التعريف والثبات، وإلا كيف يكون المعيار اعتبارياً ومتعدداً ليتم به البلاء للتمييز بين الناس؟!.

وحدد القرآن ذاتية الفعل الحسن فعلا مجسدا في واقع الناس، في كل زمان ومكان، ودل عليه، من خلال رسله عليهم السلام فقال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٢١].

وهذه سنة الخلق، منذ أن خلق الله أبانا ادم عليه السلام والى ما شاء الله تعالى.. فما جسده المعصومون السابقون من فعل مازال وسيبقى حسنا ولنا فيه أسوة، ويجب علينا الاقتداء والتعريف به، وهذا ما يبدوا في قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ۚ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[سورة الممتحنة: ٤ -٦].

لذا وقبل البدء في تفسير القرآن لابد من اعتماد ذاتية الحسن وجوهريته وكونه هدفا لذاته في هذا الكون.

ماهية الفعل الحسن:

الفعل الحسن؛ هو الحكم العقلي المستوعِب للنسق الكوني، والمجسد في الواقع.

ولذا فان الفعل الحسن: هو كل ما يصدر عن العاقل الذي ارتفع عن عقله القصور بمباشرة الوحي، أو بروح الوحي(النبي أو الإمام المعصوم)[1]، أو هو ما يصدر عن العاقل عندما يتطابق فعله مع روح الحسن الساري في الكون؛ وهو ما يتحقق من كون ذلك الفعل تجسيدا لنفاذ السنن الكونية الثمانية، ومجسدا لنسق الكينونة، وفقا لأنماطها الستة زمانا ومكانا.

وكذا يكون تعريف الفعل السيء: هو ما يصدر عن الإنسان معاكسا لروح الحسن الساري في الكون، فهو مضاد لنفاذ السنن الكونية فلا يتطابق مع نسق الكينونة.

الإنسان يختار فعله بحكم عقلي يتقاسمه تياران لقوى النفس؛ هي قوى الدأب الغريزية، وقوى الروح، والفعل الحسن ما هو إلا الفعل المختار بقوى الروح. ولذا حُصِر حُسْن الأفعال الصادرة عن المرء أو سوؤها في الاسلام بالنيات والتوجهات القبلية، (إنما الأعمال بالنيات)، والتي هي أيضا تنحصر بجوهر القوة المنتجة للفعل.

وفي ضوء هذا فقد جمع الشارع المقدس السيئات في الذنوب وحدّها ووسَمَ حدودها للناس، كبيرها وصغيرها: فهي سيئات، وبسبب عدم القدرة على الإحاطة بماهية النسق الكوني وبالتالي عدم معرفة ما يتطابق مما يصدر عن الإنسان من فعل، مما لا يتطابق مع النسق الكوني، سميت حكما شرعيا

(١) المعصومون كحجة يتمثل فيها الإحسان واقعا وقدوة لمن يريد أن يحسن؛ قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾[سورة الأنبياء: ٧٣].

لضرورة استيعابه معايير الشارع المقدس.

وجمع الصالحات من الأعمال أشار اليها وحدّها: فهي حسنات. وبسبب عدم القدرة على الإحاطة بماهية النسق الكوني وبالتالي عدم معرفة ما يتطابق مع ما يصدر عن الإنسان من فعل، مما لا يتطابق منها مع النسق الكوني، سميت حكما شرعيا لضرورة استيعابه لمعايير الشارع المقدس؛ فاصطلح عليهما بأنها أحكام شرعية.. فهي ليست واقعية.

بمعنى أن الحسنات: في الشرع المقدس هي الأفعال التي يُحرز انطباقها جزءا او كلا على واقع النسق الكوني، الذي هو تجسيد لنفاذ السنن الكونية متداخلة، وتضمنها لتمام نسق الكينونة للفعل.

وان السيئات في الشرع: هي تلك التي يُحرَز عدم انطباقها جزءا او كلا مع الواقع، أي تضادها مع السنن الكونية، وبالتالي عدم انطباقها مع النسق.

وفي ذلك حكمة ربانية بالغة، تجعل الإسلام من العقائد العملية، فضلاً عن علميتها في تصنيف الأفعال، كي تبقى أعناق المؤمنين بها مشدودة دوما إلى السماء، حيث فيض الرحمة والعدل مهما فعلت، فلا تغتر بما تظنه حسنة، و لا تقنط مما تظنه سيئة، وذلك من أروع ما جاءت به العقائد على سطح هذا الكوكب.

وهذا ينسجم مع أطروحات الإسلام الأخرى من أن هناك ميزانا عدلا لا يخطئ يحصي الأفعال، ينتظره العباد، في يوم آخر لا يفلت منه احد، مع رحمة شاملة لقاضي ذلك اليوم سبحانه يطمع بها حتى إبليس.

وذلك مما يدفع الإنسان لمزيد من تحري الأفعال الحسنة في خياره لفعله، ومزيد من التقى لتحري تجنب السيئات، وتلك غاية الفلسفة ومنتهى مطلب العلم: أن يبلغ الإنسان واقع الحسنات، وتجنب واقع السيئات فيفوز بقرب المحسن ورضاه.

من أين تأتي النسبية والاعتبار للحسن والسوء؟: إن جوهر الكينونة؛ هو الفعل الحسن، وان الحركة في ذلك الفعل، تقع في نمط، يبدأ بالقبض وينتهي بالبسط، وان بسط النمط السابق هو قبض للنمط الذي يليه، وبهذا يكون الحسن هو عبارة عن النسق الكوني في ستة أنماط.

فما وافق من فعل الإنسان هذا النسق زمكانياً، كان حسنا، وما خالف فهو سيء.

ولذا فان من جميل جوهر الإسلام: أن لا يعتبر الفعل من الحسنات ما لم يكن قد صدر من الإنسان بقصد القربى إلى الله تعالى، لأنه اعتبار وفق ميزان دقيق. فكل شيء مشدود للحسن والكمال، والله تعالى هو الكمال المطلق وهو محض الحسن.

وعلى هذا فان النسبية في اعتبار الفعل حسنة أو سيئة يحصل بلحاظ أمرين:

الأول: هو موقع الفعل من النمط زمكانيا:

فبما أن نسق الكينونة يقع في ستة أنماط، وكل نمط يتكون من طورين، وطور البسط السابق، هو قبض للاحق. لذا فان التطابق مع النسق من اجل الحسنة يقتضي استيعاب الفعل للزمكان ذاته في النمط، و إلا فانه غير حسن وان وقع في النسق.

فان ما يقع من الرضيع من فعل قد يعد حسنا، في نفس الآن لو وقع نفس الفعل من الشيخ، لكان مستهجنا، وذلك تقييم جمعي لفعل يقع زمكانيا وضمن النمط نفسه.

وهكذا يقولون: حسنات المؤمنين سيئات الأبرار، فاستيعاب المرء لموقعه الزمكاني من النمط حسنة، والقصور عن استيعابه عجز وسيئة.

فالمرء -على سبيل المثال -في موقع الشيخوخة يقل ضبطه عن المتعارف، لضعف ذاكرته، فهو شيء غير مستنكر، ولكن هذا الشيخ عندما يتقدم لموقع متقدم من النمط في سعيه لحيازة الفضل، فيصير مرجعا مثلا، عندها وفي ذلك الموقع الزمكاني يعتبر قلة ضبطه عن المتعارف: قصورا أو عجزا من اجل استيعاب موقعه من النمط، فيعتبر ذلك غير حسن، مع انه ليس بسيئة، لأنه لا يناسب نمطه في السعي إلى الحسن، فهو قاصر عن التطابق مع النسق، فلا يليق بالمرجع.

وهكذا ينسحب الاعتبار دوما على مقتضى التطابق مع النسق على الزمكان في صدور الفعل.

أما معنى الزمكان فيتحدد بموقع الفعل من النمط ومرتبته، وحال الطور

من ذلك النمط، فيتحدد الاعتبار بمناسبة الفعل لموقعه من مصدره مع نسق الكينونة.

فيكون الفعل حسنة في تناسبه مع النسق، ولا يكون حسنة عند عدم تناسبه، إلا انه لا يكون سيئة، لتفاوت في النمط أو في الطور وليس لمعاكسة النسق: ويسمي المتشرعون ذلك الفعل: فعل بترك الأولى. كما لا تتناسب حسنات المؤمنين مع سيئات الأبرار مع أنها في وحدة نسق الكينونة.

كما يفسرون أفعالا صدرت من الأنبياء: سماها أو أشار إليها القران كمعاصي، مع أنها ليست ذنوباً.

الثاني: صدور الفعل من الإنسان العارف بثوابت نسق الكينونة ومتغيرات الزمكان، وتنطوي نفسه على ثوابت من خزائن الرحمة: فيختار فعله متطابقا مع تلك الثوابت ومستوعبا تلك المتغيرات: فيحرز الواقع الحسن، في حين يرى الاخرون خارج هذا الواقع انه قد فعل سوءا.

و هنا يأتي الاعتبار في هذا الموضع، وقد يكون مخالفا للواقع لكن الفعل يبقى بما هو الواقع.

فقد أنكر موسى وهو نبي من أولي العزم عليه السلام، ما جاء به الخضر من أفعال غاية في الحسن واعتبرها نكرا.

وقد أوردنا تفاصيل هذه القصة القرآنية لتماسها مع اعتبارات الحسن والسوء في خيارات الإنسان لفعله، إتماما لفهم أفضل في الخيارات العامة والنظريات التي يؤمن بها الناس.

فعلى ما جرى من الأمثلة بين موسى والخضر، نجد كثيراً من اعتبارات الحسن والسوء التي نطلقها دون تكلف، أو دون تحرٍ لمقدار تطابقها مع النسق أو مقدار تحكم السنن الكونية فيها.

لقد أكدنا من خلال الدراسة الفيزياوية للعلاقة بين القوة والفعل المنجز بها؛ أن الحسُن والسوء جوهران لارتباطهما ذاتيا بالعلة الجوهر (موجهات القوة في الفعل)؛ في الكينونة وفي نسقها، وليس اعتباريين كما يظن البعض، فهناك براهين لذاتية الحسن وجوهريته في هذا الكون.

فما نجده من واقع الوجود من سريان لروح الحسن، متجسدة في جاذبية آخذة تتجلى في حسن الطبيعة، وحسن الكون، وجمال الحياة والأحياء، وجمال العقل وحسن وجود الإنسان.. ثم إن عقولنا مجبولة على الانجذاب للحسن.. لماذا؟!.

فما هو روح الحسن الساري في الكون؟.

الحسن بديهيا هو هدف لذاته في كل هذا الوجود.. والبديهية هذه واضحة في البراهين التالية:

أولا: برهان الواقع:

بديهيا كان الوجود المادي، لأنه أحسن من العدم.

وكذا بديهيا كانت الحياة من الوجود، لأنها أحسن من الوجود الجامد. فالأحياء أجمل من الجمادات.

وبديهيا ان الوجود الحي العاقل (الانسان) أحسن من الوجود الجامد وأحسن أيضا من الوجود الحي.

والحياة مع الموت أجمل من الحياة بدونه.

والحياة مع العقل أحسن من الحياة بدونه.

والوجود مع الحياة ومع العقل ومع الموت أفضل من الجميع وهي غاية الوجود. ولمن ينكر هذه الحقائق العقلية المنطقية البديهية، نطلب منه ان يقتل نفسه الان، فان لم يقم بذلك فهو كاذب والحقائق بديهية وسارية

وبحسب هذا التسلسل المنطقي: سيكون الوجود ما بعد الموت أحسن مما قبله.

فالواقع يخبرنا أن الحياة الإنسانية في الأصلاب والمبايض، أحسن من الحياة قبلها.

والحياة في الأجنة والأرحام أحسن من الحياة في الأصلاب والمبايض.

وان الحياة بعد الولادة أحسن من الحياة داخل الأرحام.

ثم الحياة الدنيا أحسن من حياة الرضيع.

وإذا استمر هذا التسلسل الطبيعي المنطقي: فالحياة ما بعد الموت أحسن من الحياة الدنيا.

وقد جاء مأثورا عن علوم الوحي: قال الإمام علي عليه السلام:

(إنَّ الناسَ في الدَّنيا نِيامٌ إذا ماتوا انْتبَهُوا)[٢].

وعلى هذا السياق نجد تجريبيا طبقا لعلم البيولوجيا الحديث:

١. إن الناس في الأصلاب والمبايض (نطف وبيوض) نيام، إذا نزلوا إلى الأرحام انتبهوا صاروا إلى حال أحسن من الاستجابة والصيرورة الفاعلة.

٢. وان الناس في الأرحام نيام، إذا نزلوا إلى الحياة الدنيا انتبهوا (ينزل باكيا خائفا من المجهول العظيم المتغير الحار البارد المضيء...)، ثم يتوالى شعوره بالحال الأحسن لتحسن استجابته.. ثم ينغمس في حسن الحياة فليس عنده أفضل منها حتى يذوب البعض فيها، فلا ميزة بين وجوده والدنيا وكأنه لا موت بعدها، مع أن الموت هو الحقيقة المباشرة لإحساس الإنسان في كل آن.

٣. وان الناس في البرزخ نيام إذا قامت القيامة انتبهوا...

٤. والناس في القيامة نيام إذا دخلوا الجنة أو النار انتبهوا..

٥. وفي الجنة درجات كل واحدة أحسن من التي تحتها، وفي النار درجات- نعوذ بالله -كل واحدة أقبح من التي فوقها..

فلا وجود لغير الحسن المتواصل الذي تسعى إليه كل الموجودات.. أو لنقل انه غاية وجودها جميعا.

ثانيا: برهان العقل:

جبل العقل في كل توجهاته وأحكامه نحو الأحسن قطعا: بل إن علة فعله: الأحسن.

وإذا قيل للعاقل لم فعلت هذا الفعل؟. لقال: لأنه أحسن (أي يتعلل بالأحسن لفعله دوما).

فلا شيء أفضل عند العاقل من فعل الشيء الحسن، وتجنب القبيح، بل أن عقولنا تتجوهر بالحسن وتنجذب له

(٢) ألمجلسي محمد باقر «بحار الأنوار لدرر أخبار ألائمة الأطهار» ط٣، مؤسسة الوفاء بيروت -١٤٠٣هـ، ج٤، ص٤٣، وحق اليقين؛ ج٢، ص٨٧.

وتسعى إليه.

ولكن ما هو الحسن؟.

انه الجوهر المعبر عن فعل الموجود، بالطاعة وسعيه بالرحمة واليها، وانتسابه بالحق، واستمراره بالعدل، واعتباره بالموت، وتجاوزه للبلاء، واعتماده التوحيد، والسعي للكمال.. الكمال: الذي يتعين به الوضوح ومنه التعريف.

فابتداءا: نرى القصور والغموض والعتمة، في المادة الميتة (الثقب الأسود) يرتفع من المادة، هذه التي يتكون منها عالمنا.

وبعد التطور، فالقصور الذاتي في المادة يرتفع بالحياة.

وبعد التطور، فالقصور الحيوي في الأحياء يرتفع بالعقل.

وباتجاه الغاية السامية الكبرى للخلق: فالقصور العقلي في الإنسان يرتفع بالنبوة والوحي.

هكذا يتدرج الحسن في الموجودات مع ارتفاع القصورات باتجاه الكمال.

فلا طاعة بلا حسن ولا حسن بلا وجود.. فلو لم يستجب الموجود لنظام وجوده: أي لم يطع الموجود لنسق الكينونة، فلا وجود.

والرحمة: علة الوجود، ولوحل التنافر بدل معاني الرحمة بين أجزاء الوجود فلا وجود.

والحق: نظام الوجود، ولولا هذا النظام فلا وجود.

وبلاء الموجودات بعضها بالبعض الأخر: يجلي حسنها.

ووحدة الثوابت، ووحدة الشروط، ووحدة الأنماط، ووحدة القوانين، ووحدة السنن، ووحدة النظم... تعبير عن وحدة جوهر الحسن في الوجود.

فالحسن غاية في ذاته:

والحسن: هو الوجود، والوجود هو الطاعة، ولا طاعة بلا رحمة، ولا رحمة بدون عدل و حق، ولا حق يظهر بدون بلاء، ولا بلاء بدون تواصل أو دوام، ولا دوام بدون موت، ولا موت بدون محسن واحد، ولا إحسان بدون طاعة ...وهكذا نعود لبداية النمط.

فالحسن: نمط جوهر الوجود: الطاعة أصله، والرحمة علته، والحق نظامه، ومن

خلال البلاء يتجلى، وبالموت يتواصل، وعند الإمامة معناه، وفي التوحيد نهجه والى الكمال غايته وهدفه.

الحُسْن والسُّوء في حكم العقل في تراكم الخبرة الانسانية:

أولا: الفلاسفة وسنة الحسن هدف لذاته:

(ليوسبوس: (٤٤٥ق. م): قال كل شئ مدفوع بالضرورة.

وديمقريطس: (٤٦٠ -٣٦٠ق.م) قال: كل شئ مدفوع بالحقيقة.

فما هي الضرورة التي فوق الأحسن والأفضل، التي يسعى إليها الإنسان؟.

وما الحقيقة إلا أن تكون جزءً من السعي إلى الأحسن؟.

١. سقراط:

قدم سقراط للفلسفة جوابين ثابتين: هما عن ماهية الفضيلة، وعن ما هي أفضل دولة: وبذلك فانه نجح في إنفاذ سنة الكون وسار معها)[٣].

٢. أفلاطون:

جعل للحسن مثالا في عالم خاص به، ونحن إنما أشباح تعج بالنقص وتسعى لبلوغ مثالها.

وهذا تجسيد واضح لسنة الكون في سعي الموجودات للحسن.

فأفلاطون في مُثله، وفي مدينته الفاضلة: تعبير واضح لنزوع العقل الإنساني الراقي إلى الأحسن.

(لم تلبس الفلسفة على ما نعتقده إطلاقا، مثل هذا الثوب الجميل اللامع الذي لبسته في أسلوب أفلاطون بعده ولا قبله[٤]).

وأفلاطون يرى: أن الحسن كله في العقل، فنراه يقول:

(سوف لا تنجو المدن والجنس البشري من الشرور والفساد والمرض، إلا إذا أصبح الحكماء ملوكا، أو الملوك حكماء، واجتمعت الحكمة والزعامة السياسية في رجل واحد)[٥].

هذا النص: هو جوهر فلسفة أفلاطون.

(٣) وول. ديورانت (قصة الفلسفة) ط٤، مكتبة المعارف، بيروت -١٤٠٢هـ، ص١.

(٤) قصة الفلسفة، ٢١.

(٥) قصة الفلسفة، ٣٣.

وهذا بمضمون واضح يعني: أن العقل حيث يسعى ليبلغ الحسن كغاية.. فهو أحسن خلق.. والعاقل إذا سئل لِمَ فعلتَ هذا؟. فانه يقول: لأنه أحسن!. فالحسن غاية فعل العاقل.

يقول أفلاطون: (إن هذه الدائرة تتشكل بحركة قلمي، ولكنها تزول عندما أمحوها بالممحاة. أما فكرة وصورة الدائرة الحقيقية تستمر موجودة إلى الأبد)[٦].

ولقد اخطأ فلاسفة كبار قَصْدَ أفلاطون في مَثَلِه هذا: ولذا قالوا في تفسيره... إن الله هو الذي يمسك الجسد بيده.. فالله هو القوانين التي يقوم عليها الجسد[٧].

واخطأ أرسطو أيضا، عندما ظن أن أفلاطون قصد بالمثل: (وقد كان ينبغ ما يحتمل أن هذا العالم يحكمه قانون ونظام رياضي)[٨][٩].

٣. أرسطو (٣٩٩ ق. م):

إن أهم سؤال في حياة أرسطو هو: ما هو الخير الأعظم في الحياة؟.

(إن الحياة قد تطورت باستمرار في تعقيد وقوة، وان العقل والذكاء قد تقدم مرتبطا مع تعقيد البناء وتحرك النوع)[١٠].

إن أرسطو مجّد العقل وربط الجمال بالعقل، والحسن يكون حيث يكون سرور العقل، ولذا فان كل ما في الكون بما فيه العقل الحر المختار يسعى إلى الحسن: يقول أرسطو: (وهذا السرور العقلي هو أعظم أشكال السرور الذي يمكن أن يرتفع له الإنسان)[١١]

بمعنى أن غاية سعي الإنسان كموجود مثل باق الموجودات هو الحسن.

الفلاسفة الأوربيون:

فرنسيس بيكون:

يمجد العقل ويطالب بتحريره من كل الأوهام، ثم إن نظرية الصور عند بيكون تشبه كثيرا نظرية المثل عند أفلاطون.. يقول: (عندما نتكلم عن الصور، فإننا لا نعني شيئا سوى تلك القوانين والقواعد والتنظيمات للعمل

(٦) المصدر نفسه، ٤١.
(٧) المصدر نفسه، ٤١.
(٨) المصدر نفسه ٤١.
(٩) المصدر نفسه، ٨٤.
(١٠) قصة الفلسفة، ١٠٨.
(١١) المصدر نفسه، ١١٧.

البسيط التي تنظم وتشكل طبيعة بسيطة)[١٢].

سبينوزا:

هناك حوار دار بين تلميذ وسبينوزا، بدأ بسؤال ضمن رسالة وجهت إلى سبينوزا:

(كيف عرفت أن فلسفتك أفضل الفلسفات؟.. ناهيك عما سيأتي في المستقبل من فلسفات؟. هل اختبرت الفلسفة كلها قديمها وحديثها التي تدرس هنا وفي الهند وفي جميع أنحاء العالم؟.

ولو افترضنا جدلا بأنك اختبرتها جميعا، وأمعنت النظر فيها، فمن أدراك انك اخترت منها أفضلها؟. وكيف تجرؤ على وضع نفسك فوق رجال الدين والأنبياء والرسل والشهداء والعلماء وآباء الكنيسة؟.

انك لإنسان بائس، ودودة تسعى على الأرض. نعم انك رفات وطعام للديدان، كيف تستطيع مواجهة الحكمة الخالدة بكفرك العنيد؟. وما هو الأساس الذي يقوم عليه هذا المبدأ اللعين الطائش الأحمق الحقير، الذي تنادي به وتدعوا له؟ وأي غرور شيطاني ينفخ فيكَ ويدفعك إلى الحكم على خفايا الكون التي يعلن الكاثوليك أنفسهم بأنها فوق العقل والإدراك؟.

و أجابه سبينوزا:

انك يا من تدعي أنك وجدت أخيرا أحسن الديانات، وأحسن المعلمين، ووضعت إيمانك فيهم، كيف عرفت أنهم أفضل من علموا الديانات أو يعلمونها؟. هل اختبرت كل هذه الديانات، قديمها وحديثها التي تُعلّم هنا وفي الهند وفي جميع أنحاء العالم؟.

ولو فرضنا انك اختبرتها جميعا فمن أنبأك انك اخترت الأفضل.

إن جوهر الحوار هنا، وكما نلاحظ: حول إمكان بلوغ الأفضل والأحسن: من الثوابت التي يختلف فيها ذوو العقول[١٣].

هيجل:

يعتقد هيجل: أن الروح المطلق، : هو الباعث على الديالكتيك، الذي يسميه العملية المنطقية وان (العقل هو الوسيلة

(١٢) المصدر نفسه، ١٦٩.

(١٣) قصة الفلسفة، ٢١١.

التي لابد منها لإدراك الديالكتك: الذي هو التطور من وحدة إلى تعارض ومن تعارض إلى وحدة).

(وان مهمة الدين هي بلوغ المطلق: (الله)، وان الله هو نظام الصلات الذي تتحرك به جميع الأشياء وتعيش.

إن المطلق ينهض في الإنسان إلى وعي ذاتي، ويصبح الفكرة المطلقة، وذلك إن الفكرة تدرك نفسها كجزء من المطلق)[١٤].

وبعد كل هذا عرفنا إن الحسن والقبح ليس مجرد معانٍ نستحضرها بألفاظ تدل عليها: إنما الحسن والقبح حادثات وأفعال: تدرك من خلال استحضار القوى المنجزة لها، فالقوة هي التي تبطن الفعل وتدل عليه.

ذاتية الحسن وجوهريته:

إن الناس يتداولون ألفاظا لمعاني الفضائل، ويجادلون مثلا، بقولهم: إن الكرم حسن، والبخل قبيح، والصدق حسن، والكذب قبيح...

إن الواقع غير هذا تماما، بل واعقد: فهذه المعاني لا تكون حسنة أو قبيحة، إلا بملاحظة علتها الدافعة لفعلها المنجز لها، فتكون حسنة إذا أتت معلولة لجوهر الكون وعلة الكينونة وهي الرحمة، ومتطابقة معه. وهذا ما يؤكده الاسلام فالاعمال بالنيات.

فلكي تكون هذه المعاني فضائلا حقيقية وفعال حسنات، لابد ان تتطابق في أدائها السنة الكونية مع السنة التكوينية للنفس الإنسانية التي يصدر عنها الفعل.

فالكرم الفضيلة: هو الكرم الذي يأتي مدفوعا بعلة الرحمة وتجسيداً لروح الحسن الكوني الساري.

أما إذا كان هذا الكرم يأتي لعلة غير هذا: كالرياء والسمعة أو العجب أو التفاخر... فانه قبح.

وكذا الشجاعة والصدق، حتى الكذب: إذا جاء فعلا معلولا للرحمة، كدفع الظلم عن برئ أو لتحقيق عدالة ضد ظالم بمعاني الرحمة والسنن الكونية.. إن هذا الكذب قطعا يكون حسنا.

ويتجلى كمال الإسلام، من خلال اعتباره العمل الحسن هو ما كان بنية الخير المطلق؛ بقصد القربى إلى المحسن المطلق

(١٤) قصة الفلسفة، ٣٧٩.

(الله) جل وعلا.. فكل عمل يأتي من الإنسان بنية غير هذه النية أو لقصد غير هذا القصد: فهو عمل مجذوذ.

ولذا فالاسلام يرى في؛ الرياء والعجب والكبر: دوافعَ تفسد عمل الإنسان، بل تفسد وجوده كله، وتحوله إلى قبح وشر مطلق.

ولذا فمن باب الجهل بهذه العلة الجوهر، التي يدور الحسن مدارها وجودا وعدما فيحسن الفعل، أو يقبح معها أو بدونها، وعند عدم ملاحظة ذلك: يأتي اللغط والجدل في اعتبارية الحسن والقبح أو نِسْبِيَّتِهما، وهما في الواقع اثبت شيء في الوجود، بل لا ثابت سواهما.

ومن هذا الباب من الجهل تأتي الذرائع للطعن بالفضائل من قبل أعدائها وجهّال معانيها.

قال الله تعالى مخاطبا رسوله الحبيب محمدﷺ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [سورة المنافقون: ١].

وهنا نلاحظ أمراً غريباً في واقع اللغة والناس، ذلك لأننا نعلم أن من يشهد بما يطابق الواقع فهو صادق.. فلماذا عندما يشهد المنافقون بان محمدا رسول الله: يصفهم الحق بأنهم كاذبون؟.

والجواب هو: أن الفعل الصادر عن الإنسان يقبح ويحسن بعلته الجوهر الدافعة له (الرحمة وروح الحسن الساري) وليس بمطابقته للواقع أو عدمها.. وان قول المنافقين (نشهد انك لرسول الله) يصدر بقصد تخريب الواقع، بعلة منافية للرحمة.. انه فعل يقصد به التضليل لفعل ما يعاكس الحسن.

وقد علق أمير المؤمنينعليه السلام، من قبل على فعل الخوارج: عندما رفعوا شعاراً الآية: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [سورة الأنعام: ٥٧][١٥].

بقولهعليه السلام: (إنها كلمةُ حقٍ يُرادُ بها باطِلٌ).

وهكذا هو حال الفضائل كلها: ونجد ذلك واضحا في المنطق الإنساني، من خلال شعر الحكمة العقلية:

(١٥) وفي [سورة يوسف أيضاً: ٤٠ و٦٧].

إذا رامَ كيدا بالصلاة مقيمُها

فتاركُها عمداً إلى الله اقربُ

فاللفظ ليس فيه حسن أو قبح، وكذا المعنى: وما يأتي على الألسن مما يقوله الناس، ألفاظا لمعانٍ ويظنون أن الحسن والقبح، يقترن بتلك المعاني: فالحقيقة هي أن اللفظ ومعناه، لا حسن لهما ولا قبح، إنما الحسن والقبح يترتبان على الفعل الموافق لذلك المعنى وليس على المعنى ذاته، والفعل هو ظاهر لقوة باطنة، فاذا لم يكن مستبطناً الرحمةَ فهو سوء مهما كان لفظه، فإنما حسنه وقبحه يتوقف على العلة الدافعة للفعل الذي يبرز به ذلك المعنى.

فان كان الفعل الذي يتحقق به المعنى-أي معنى -معلولا للرحمة أو مدفوعا بقوتها متطابقا مع روح الحسن الساري في الكون، فهو الحسن.

أما إذا كان الفعل -أي فعل -مدفوعا بقوة القسوة والقهر: فهو القبح.

فالكذب مثلا أو الصدق، من ناحية المصطلح سيان: وأيهما يكون دافعه وعلته الرحمة بمعنى كونها قوة كونية في سياق تحقيق الحسن فهما محض حُسن.

يمكن تمييز المعنى الكوني للرحمة، لكي لا تختلط بالعاطفة أو الحب الأعمى، أو أي شكل من أشكال المؤالفة أو الرأفة. فالرحمة الكونية تتميز بأنها: قوة يأتي الفعل لإبرازها في معانٍ:

١. تقترن بالطاعة (تأصل الحسن). وقد مر معنا المعنى البديهي الكوني للطاعة: فهي استجابة الموجود لنظام وجوده.

٢. وتقترن بالعدل والحق (تَبَنّي نظام الحسن). وقد مر معنا معنى الحق، فهو الصدق الثابت المنقول عن الواقع، والعدل هو جعل الواقع مطابقا لأصل الصدق الثابت في الواقع.

٣. وتتضمن احتساب الموت (تواصل الحسن): فالإنسان الذي تصدر عنه الأفعال مراعيا انه سيموت، وسيحاسب على تلك الأفعال: حسنا بحسن وسوءً بسوء، يعني انه سيوافي النسق، متواصلا إلى مراتب أعلى في الكمال.

٤. وتقتدي بمجسدات الحسن في الوقع (الإمامة). فالإمامة هي معنى الحسن في ذات الموجود، أو في صنفه.. ولو أن الموجود فَقَد معنى حسنه فانه يفقد معنى وجوده.

٥. وهي قوة لا تخرج عن جوهر الوحدانية (جوهر الحسن). فكل القوى سنخ واحد تتمايز فقط في المرتبة من النمط ومن الطور.

في الأنماط الدنيوية: كل موجود، تدركه بعد إيجاده، حيث الوجود نمط، وقبل أن يكون نمطاً، فلا إدراك، فالإدراك يتضح بمقدار بينونة النمط الخلقي.

فكلما ابتعد الموجود عن مبدأ قبضه، وارتفعت فيه مرتبة القبض وسعة البسط، كان اقرب للكمال وابعد عن القصور، فهو أحسن.

٦. وتسعى بالفعل للكمال (مجسدات الحسن)، من خلال معرفة أنماط النسق الكوني والتوافق معها بالأداء الفعلي.

ولذا فان الحسن، جوهر وجودي، ندركه فقط، حين تتوافر مكوناته أو مركباته، فهو كمحصلة مركبات القوى، بالضبط كآي مقدار اتجاهي في الطبيعة والحياة والعقل، أما الروح فهي جوهر حسن محض.

القول باعتبارية الحسن.. من أين جاء؟.

يتحدث السيد محمد حسين الطباطبائي قدس سره عن جذور الاعتباريات وبداية ظهورها فيقول:

(لما كان الإنسان مقيما نشاطه الطبيعي والتكويني على أساس العلم والإدراك، فهو مضطر لإيجاد مجموعة من الإحساسات الإدراكية كالحب والبغض والإرادة والكراهة، لتشخيص فعله ومورد فعله. وفي مورد الفعل: فانه يميز متعلق نشاطه من غيره بواسطة تطبيق تلك الصور الحساسة، ثم يجعل مورد التطبيق متعلقا لقوته الفعالة (يضفي عليه معنى الوجوب -يجعل الوجوب بينه وبينه-ويؤدي ذلك الفعل.

وتؤيد هذا الرأي التجارب العديدة في حياة أفراد الإنسان وسائر

الكائنات)[١٦].

إن الذي دفع بعالم عظيم مثل الطباطبائي إلى هذا القول، في تفسير بديهية من بديهيات الكون هو:

أولا: أن توضيح الواضحات من أصعب الصعوبات، وقد تناول تفسير بديهية كون: الحسن هدفاً لذاته في هذا الكون.

وثانيا: هو اعتقاده بان: (صياغة العلوم الاعتبارية، معلولة لما تقتضيه قوى الإنسان الفعالة الطبيعية والتكوينية)[١٧].

والحقيقة هي العكس: فان ما يسميه السيد الطباطبائي رضي الله عنه في هذا الموضع بالذات: اعتباريات: هي علل، وان القوى هي ظواهر تلك العلل، وفي هذا تمييز بين فعل الإنسان، والقوى المنتجة لفعله، بينما الافعال هي ظواهر لبواطن القوى.

ولو كان السيد الطباطبائي قدس سره يرى واقع أن: الحسن هدف لذاته في هذا الكون، وان كل القوى الطبيعية والنفسية على مختلف أنواعها متجهة لتحقيق هذا الهدف، لما كان مضطرا لأن يقول:

(لاستقراء الظواهر الاجتماعية للبحث عن جذور هذه العلل التي يسميها الاعتباريات، ولما اضطر لتقسيمها إلى اعتباريات سابقة للمجتمع وأخرى لاحقة)[١٨].

وعليه نجده رضي الله عنه يذهب بعيدا ليضع الوجوب والضرورة اعتبارا، مثلما هو الحسن والقبح، ثم يجعلهما قسيمين لاختيار الأخف والأسهل، واصل استخدام الاجتماع، واصل متابعة العلم.

ولكي يتخلص السيد من وضوح الحسن والقبح، والوجوب والضرورة في حاجة الإنسان: لوصف فعله بهما نراه يضطر ليقول: (إن الاعتباريات العامة (الاعتباريات السابقة للاجتماع)، هي الاعتباريات التي لا يجد الإنسان مفرا من اعتبارها في كل اتصال له بالفعل. أي أن الذي يوجدها: هو أصل ارتباط الطبيعة الإنسانية بالمادة في الفعل. ومن

(١٦) الطباطبائي؛ محمد حسين، «أسس الفلسفة والمذهب الواقعي» ج٢ -ط٢، دار التعارف، بيروت -١٤٠٨هـ، ص٤٨.
(١٧) المصدر السابق، ص٢٥١.
(١٨) المصدر السابق، ص٢٥١.

هنا فإنها لا يحويها الفناء ولا يطرأ على ذاتها التغيير)[١٩].

لاحظ هنا أن في العبارة انقلاب على الاعتبار، الذي يتضمن التعدد والتغيير حتما: ويبدو ذلك من أمثلة السيد المستقرأة: لاحظ هذا المثال:

(كان الناس في الأزمان الغابرة يستغلون الدواب والمحامل والأسِرَّة المحمولة بواسطة الحمالين للقيام بالأسفار الطويلة، فهذه الوسائل كانت لازمة وحسنة وجيدة لطي المسافات البعيدة، ولكنه بظهور وسائل حديثة، كالسيارات والقطارات والطائرات، فقد قضت اختيار الأخف والأسهل بوضع الوسائل الحديثة مكان القديمة، فسحبت من هذه الأخيرة صفة الضرورة والحسن و أضافتها إلى الأولى (الحديثة). ومن الواضح أن أصل الحسن لم يلغ وإنما غير مكانه فقط)[٢٠].

إن القول بـ (أن أصل الحسن لم يلغ) يتجاوز القول باعتبارية الحسن والقبح، والذي يؤكد التشويش في هذا الاعتبار، ويميل إلى تثبيت الحسن.

فالواقع هو إن الحسن علة في ذاته ولذاته في الكون، والتشويش واضح في قول السيد قدس سره : (إن تغيير الاعتبارات هو بنفسه أحد الاعتبارات العامة)[٢١].

ويسمي السيد الطباطبائي سُنَّة التكامل الكونية: قريحة التكامل، باعتبار أن السنة الكونية تتحول إلى سنة تكوينية في النفس الإنسانية.. لاحظ قوله رحمه الله :

(نحن لا نشك بأننا بفضل قريحة التكامل، نضيف دائما إلى معلوماتنا)[٢٢].

فهذه التي يسميها السيد قريحة التكامل، علتها السنة التكوينية في السعي إلى الحسن باعتباره هدفاً لذات في هذا الكون.

وهناك دليل قطعي آخر على تشوش معنى الحسن والقبح عند السيد الطباطبائي رحمه الله، من خلال البرهنة على كون الحسن والقبح اعتباريين لارتباطهما بحاجات الناس، فيقول:

(١٩) المصدر السابق، ص٢٧٢.
(٢٠) المصدر السابق، ص٢٧٣.
(٢١) المصدر السابق، ص٢٧٤.
(٢٢) المصدر السابق، ص٢٧٥.

(لو فرضنا إنسانين، أحدهما (إنسان اليوم) وهو جالس على كرسيه الرائع في إحدى القاعات الممتازة للقصور الفخمة، ويرتدي لباسا فاخرا قد خيط حسب أخر نمط، وأمامه منضدة، قد صفت عليها ألوان الأطعمة الشهية. والآخر (هو الإنسان البدائي): الذي كان ينفق عمره في ثغور الجبال، ويستعيش بأعشاب الصحراء وفواكه الغابات. بالمقارنة بين هذين، يتضح لنا أن الإنسان قد يقطع شوطا طويلا ترك خلاله ما كان يراه لابد منه، واعتبر أشياء كثيرة قبيحة بعد أن كانت عنده حسنة، حتى انتهى به المطاف إلى هذا اليوم. فالإنسان أبدا لا يكف عن التفكير في الحسن والقبح، ولكنه يغير موقفه باستمرار وبتقدم الحياة، فيعتبر الحسن قبحا والقبح حسنا. لأن حاجات الحياة في الماضي، ليست هي حاجات الحياة في العصر الحاضر نفسها)[٢٣].

وهنا: في اتخاذ حاجات الناس أساسا ليكون بعدها اعتبار الحسن قبحا والقبح حسنا، يكمن الضياع..

فكيف ندعو الناس لكي يحسنوا وحاجاتهم مختلفة حتى في الزمن الواحد بعد تقرير هذا الاعتبار؟.

وحدود الله التي تعتبر من المسلمات العقلية، والتي هي من بديهيات الكون وسننه، والتي بتعديها يحصل السوء، ما هو مصيرها في الاعتبار؟.

وما هي حدود الإحسان وسمات القبح؟!.

ويظهر أيضا الخلط في اعتبار الوجوب والضرورة عند السيد الطباطبائي رحمه الله: وكأنه يتجاهل أن هناك سننا كونية نافذة (لابد لها من النفاد)، تجعله يقول:

(إن الإنسان لا يكف عن التفكير في الحسن والقبح)[٢٤].

لأنها سنة تتحكم في الموجودات بما فيها الإنسان، لأجل أن يكون الحسن هدفاً لذاته في الكون، ولذا يفسر اعتباريته للوجوب والضرورة: في قوله:

(فنحن مثلا قد أخذنا نسبة الوجوب (لابد) من نسبة الضرورة الخارجية

(٢٣) المصدر السابق، ص٢٧٦.

(٢٤) المصدر السابق.

الموجودة بين العلة والمعلول الخارجيين، والعامل الأساس لهذا الاعتبار: هو إننا لاحظنا ارتباط هذا الفعل بالقوة الفعالة، واشتماله على مصلحة تلك القوة، ومن الواضح أن هذا الوجوب الاعتباري- كالوجوب الحقيقي -يتحقق بين الفاعل والفعل (وهو الوجوب التعييني حسب اصطلاح علم أصول الفقه)، ولكنه بعد إنجاز هذا الأمر لما كنا نلاحظ أحيانا فعلين مختلفين يشتملان كلاهما على المصلحة بشكل متساو، لذا فنحن نعتبر الوجوب بين القوة الفعالة واحد الفعلين (لا على التعيين) وبالتالي يظهر وجوب جديد نطلق عليه اسم الوجوب التخييري).

ويذهب السيد إلى ابعد من هذا، وهو أن (تغيير الاعتبارات هو بنفسه أحد الاعتبارات العامة)[٢٥].

ويقول رحمه الله :

وتغيير الاعتبارات يمكن تلخيصها بالنقاط التالية:

أولا: المناطق المختلفة للأرض، لا تتشابه من حيث الحرارة والبرودة وسائر الخواص، والآثار الطبيعية ولها تأثيرات متنوعة، وعميقة على طبائع الأفراد أفراد الإنسان... ونلاحظ وجود اختلافات واسعة بالأفكار الاجتماعية والعادات والآداب.

وكذا بيئة العمل فأنها مؤثرة في اختلاف الأفكار والإدراكات الاعتبارية..

ثانيا: إن كثرة تكرار فكر ما على عقل الإنسان يجعله نصب عينيه ولا يسمح له بإبعاده عن خاطره والالتفات إلى غيره، وعندئذ يبدو هذا الفكر صحيحا ومنطقيا وحسنا في نظره، أما ما يخالفه فهو بعكس ذالك، ومن هنا تنهض وراثة الأفكار والتلقين والعادة والتربية بدور مهم في تثبيت أو تغيير الأفكار الاجتماعية والإدراكات الاعتيادية.

ثالثا: نحن لا نشك بأننا بفضل قريحة التكامل نضيف دائما إلى معلوماتنا... ولهذا يرافق التغيير دائما مفاهيم من قبيل (الحسن والقبح، ولابد، ولا ينبغي)[٢٦].

وهذا القول في تفسير تغير

(٢٥) المصدر السابق، ص٢٧٤.

(٢٦) المصر السابق، ج٢ (٢٧٤ -٢٧٥).

الاعتبارات من لدن الطباطبائي: مما لا يُفهَم، ذلك لان الحسن والقبح ذاتيان وليسا اعتباريين على كل صعيد مادي أو حيوي أو عقلي، أما الروح فحسن محض.

ولكن هناك نص ينقله حسين عشاقي الأصفهاني عن نهاية الحكمة: يقول رحمه الله : (الخير ما يطلبه ويقصده ويحبه كل شيء).

وهذا ما يتفق مع ما أثبتناه من أن: (الحسن هدف لذاته في هذا الكون).

ولقد جاء في الشرح:

(الخير إما أن يكون بالقياس، وهو ما يكون سببا لكمال وجودي في الغير، وأما أن يكون بالذات وهو ما يكون كمالا أولا أو ثانيا للشيء نفسه، فكل علة وجودية خير بالمعنيين، لان كل علة سبب لوجود معلولها، وموجب لكماله الوجودي، فهي خير بالقياس إلى معلولها، وكذا كل علة وجودية خير بالذات لان وجودها لنفسها كمال أول لها فهي خير لنفسها. ثم لما كان الواجب وجودا صرفا غير مشوب بالعدم وكمالا محضا غير مركب من الوجدان والفقدان كان خيرا محضا بالذات، وكذا لما كان الواجب علة لجميع ما سواه فهو خير بالقياس إلى جميع ما سواه، فقول المصنف: (الخير ما يطلبه ويقصده ويحبه كل شيء)؛ إشارة إلى الخير القياسي في الواجب.

فان الواجب؛ هو الذي يطلبه ويقصده ويحبه كل شيء ويتوجه إليه كل شيء بطبعه، لان الواجب هو القيوم الذي يقوم به كل شيء في كمالاته الأولية والثانوية، فكل شيء باقتضاء جلي يطلبه لرفع عدمه ولطرد نقصه فهو خير بالقياس إلى كل شيء[٢٧]).

وهذا قد يرجع لعدم وجود مجمع علمي فلسفي إسلامي يوحد المصطلحات الفلسفية، فمما يشكل خلطا في المفاهيم: أن يصدر عن فليسوف إسلامي مثل الطباطبائي القول باعتبارية الحسن خصوصا وان السيد قد تصدى لتفسير القران: الكتاب الرباني -كلام

(٢٧) عشاقي الأصفهاني؛ حسين (وعاية الحكمة في شرح نهاية الحكمة) المركز العالمي للدراسات الإسلامية، ط١، قم- ١٤٢٤هـ، ص٦٧٩.

الله -الذي يعتمد أصلا على كون الحسن والقبح ذاتيان :﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سورة الملك: ٢].

ولو أن الحسن يختلف باختلاف المناطق وحرارتها، ويختلف باختلاف حاجات الإنسان، ويتأكد بتكرار الأفكار-كما يقول رضي الله عنه -لكانت هناك قوالب جغرافية للعقل، ولما آمن الغربي بأشد مما آمن به العربي بالإسلام!.

أو بعبارة أخرى لكان يجب أن يكون هناك أكثر من قرآن، وأكثر من تشريع، واكثر من حد، بل لما كان هناك تشريع ثابت كما هو موجود من لدن أبينا آدم عليه السلام إلى سيدنا المصطفى محمد الخاتم ﷺ: تشير الى الحسن وتدعو إليه، وتشير الى القبح وتنهى عنه.

المحسنون والإحسان في القران:

المؤمنون هم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [سورة النمل: ٣].

المحسنون هم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [سورة لقمان: ٤].

إذن المؤمنون هم المحسنون.

المؤمن والمحسن؛ يستجيب بفعله للفطرة، لان الصلاة فعل فطري، تجعل القائم بالصلاة في حال حضور زماني مكاني في الدين لربه، إذ في الصلاة استجابة الموجود لنظام وجوده، فالصلاة طاعة والطاعة فعل فطري لكل موجود.

والمؤمن والمحسن، هو الذي يَطْهُر فعلُه وما يترتب عليه من مكسب، فالذي يؤتي الزكاة يجعل لمعنى حضوره في الدين الذي تحققه الصلاة ميدانا فعليا وحجماً تاماً في نفسه لعقيدته بالله تعالى، فهو يعيش لمعاني رسالته ومهامه كانسان خليفة مطلوب منه العطاء والشعور بالمسؤولية اتجاه الآخرين فلابد له من أن يدفع حق ذلك الشعور من طيب ماله ومكسبه.

والمؤمن والمحسن، هو الذي يختار فعله منطلقا من يقين باللقاء الحتمي، للمحسن المطلق، وان الحياة الحقيقية هي الحياة الأخرى، وهذا اليقين يتلازم بالضرورة مع خيارات فعل الإنسان

الذي يتقي سخط الله والمصير المحتوم، فلابد للفعل وفق هذا اليقين أن لا يخالف مشيئة المحسن، وان يكون مؤديا لحال أفضل في تلك الحياة الأبدية فهذا اليقين يتحقق معه الخيار الذي يتوافق مع رضا المحسن ويمنع عليه أن يختار ما يخالف يقينه.. انه فعل الأتقياء.. ولذا فان العلم الحق سيكون تماما بقدر حجم التقى.

بعبارة أخرى؛ بما أن اليقين أرقى درجات العلم، فان نفس الإنسان لها حجم من العلم يساوي نصيبها الذي استوعبته من الأمر (كونها خليفة تحمل الأمانة التي لابد ان تكون مسئولة عنها في اليوم الأخر)، وبقدر هذا الاستيعاب يكون الإحسان ويعرّف المحسنين كما ورد في الآية الكريمة.

فالإحسان له ثلاث ركائز هي:

١. الطاعة، العبادة أو الصلاة (الاستجابة الزمكانية في الطاعة لله تعالى). وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر.
٢. إعطاء الحقوق المترتبة على المال (الحضور الميداني بالمسؤولية أمام الخالق والمخلوق).
٣. اليقين بالحياة الأخرى (تحقق الاستجابة الكاملة والحضور المستديم والمستحكم لدين النفس والرقيب الذاتي الحق).

إن هذه الركائز الثلاث تحدد جادة لخيار الفعل بما تجعله يقع متوافقا مع النسق الكوني، وتمنع عليه أن يقع خارجه، وبهذا يتحقق الإحسان.

ولابد من ملاحظة مهمة جدا هنا وهي؛ أن اليقين غير التسليم، فمن ابسط مراحل العلم هو التسليم، وأما اليقين ففي أعلى غايات العلم ومراحله.. ولذا فهي مرحلة تجعل الإنسان يعي تمام الوعي بما يختار، أما مع التسليم فقد يختار الإنسان القبح ظانا انه الحسن.

كما هي خيارات التكفيريين اليوم التي يسلم فيها المجرم انه يفعل ما يجعله بدرجة رسول الله حين يقدم على تفجير نفسه في الأبرياء أو حين يمثل بجثث ضحاياه.

قال الله تعالى في هذا: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٣٠].

ويقول أيضا في هذا: ﴿ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾[سورة الزخرف: ٣٧].

﴿ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾[سورة المجادلة: ١٨].

والذي يفني حياته ويظن انه محسن وهو على ضلال: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ [سورة الكهف: ١٠٤].

وكذا الظان قد يظن انه بدرجة اليقين.. فيقول الله تعالى فيه: ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾[سورة الأنعام: ١١٦].

ويقول تعالى أيضا في ذلك: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٨].

والظن غير الحق: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴾[سورة يونس: ٣٦].

وفي أقواله تعالى تحذير من الضياع في الاعتماد على الظن: ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾ [سورة النجم: ٢٣].

﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴾ [سورة النجم: ٢٨].

﴿ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [سورة فصلت: ٢٣].

ومثل الذي يعتمد الظن؛ العالم الذي يفتتن بعلمه: ﴿ أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾[سورة الشعراء: ١٩٧].

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ

مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [سورة القصص: ٧٨].

إلا إن المتيقن الذي يحيى اليقين؛ شيء أخر لأنه يحيى المواجهة مع الحقيقة نفسها، وذلك واضح في محاورة إبراهيم عليه السلام مع ربه التي ينقلها لنا الكتاب الحق: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠].